بين يدى المازنى

أنشد أحد الشعراء قصيدة أمام أبى العلاء المعرى ، وهو بالشام ، فقال له : أنت أشْعر من بالشام ، ثم قابله مرة أخرى بعد عام فى بغداد - إبان رحلة المعرى إليها - وأنشده قصيدة جديدة ، فقال له : ومَنْ بالعراق .

هذه «الواو» العاطفة لمطلق الجمع عند النحاة ، لكن العطف جاء بعد حول كامل ، فهل يطيق سادتنا النحاة هذا الفاصل الزمنى والمكانى ؟ لعلهم يطيقونه ، ولهم سند من إمام فى العربية فى قامة شيخ المعرة .

خطر فى بالى هذا الهاجس أمام المازنى الشاعر ؛ إذ مرت سنوات طوال تقلبت فيها أطوار الفكر والنظر والإبداع ، وهذه «الواو» لاتزايلنى منذ نظرت باحثًا فى شعر المازنى ؛ حيث اهتديت إلى معدن شاعريته ، وداخلته فيما هو باق منها ، - وقد بقى كثير - ، وكل مازاد بعد ذلك إنما كان على شىء وضعت يدى عليه منذ ذلك الإبان البعيد ، تزيده الأيام رسوخًا وتمكنًا ، وتفصيلاً لمجمل ، وإيضاحًا لمشكل ، خاصة حين درست شعر المازنى مع طلابى ، ولهم نظر يشاكه أو يناقض رؤيتى ، غير أن هذا النظر كان عسيا - ولايزال - أن أراجع ، وأن أقف على أشياء ندين بها معًا للحوار الحى والحر دون وصاية .

لقد عرفت المازنى الناثر كاتب مقال ، وروائيًا ، وصاحب صور قلمية ، قبل معرفتى به شاعراً ، لأنها تأخرت حتى سنة صدور ديوانه المجموع ١٩٦١ ، طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لكن هذه المعرفة - وإن تأخرت - كانت تشى بها كتاباته النثرية ؛ لأن الشاعرية سرت فى أعراقها ، ولأنها - فى الوقت ذاته - إفضاء وبث من الكاتب إلى القارىء ، وهل الشعر - فى جوهره - إلا إفضاء وبث ، مع القدرة الصياغية الفذة التى لاتزايل المازنى على الإطلاق ، وهذه القدرة لم يرزقها إلا نفر قليل ، المازنى فى صدارتهم .

كان الأستاذ العقاد - فيما كتبه عن صديقه - وفيما كان يحادث به مريديه فى

ندوته كثير الثناء على صاحبه معللاً ومحللاً ، سواء فى شعره أم فى نثره وترجماته ، وقال - فيما قال - فيما سمعته منه ، وما قرأته له بعد ذلك - : إننا لم نفد الفائدة المرجوة من ملكات المازنى ، وخاصة فى الترجمة التى نعتها «بالعبقرية» ، ومن ثم جاء اهتمامى - والاهتمام يعدى- بصديق شيخنا الأكبر العقاد، واتخذت من المازنى شيخًا أيضًا ، لكن الفارق بينهما بالنسبة لى كان بين الأستاذية والصداقة ، مع وجودهما معًا فى نفسى ، غلبةً لجانب على جانب ، كان الكفل يميل إلى الأستاذية مع العقاد ، والصداقة - وإن لم أر صديقى المازنى - مع صنوه ، وربما كان جانب السخرية ، وخلع العذار أحيانًا - مع الحفاظ على التوقير - يجذبنى للمازنى ، كذاك - فيما يتصل بالأداء الشعرى - فيما بعد . .

بالنسبة لى ، كنت - ولا أزال - أفضل المازنى فى كثير من المواطن ، وربما كان هذا لقراءة الشريف وجزالته ، وهى تعدى من يلازم الشاعر العباسى العظيم ، على حين كان التأمل ، والاستغراق ، والتهجم على الفكرة ديدن العقاد شأنه فى ذلك شأن ابن الرومى ، والمتنبى والمعرى ، وإخوان هذا الطراز ، وأعتقد أننى قبست من هاتين النارين شاعرًا وناثرًا ، وإن كانت «الدرعمية» التى نعت بها العقاد أبناء دار العلوم - وعلى رأسهم على بك الجارم - وراء طربى لصياغة المازنى فى جملتها ، ولصياغة العقاد فى كثير مما كتب ، وخاصة فى نثره الذى كتبه فى مستهل حياته ، بتلك الجزالة والفحولة التى ماعتم أن مال عنها فى أخريات أيامه حين كتب يوميات الأخبار ، وقبلها بقليل ، ويشاطره فى هذا صنوه المازنى ، الذى كانت سمة الفحولة فى الصياغة بائنة ، وفائقة فوقًا شديدًا ، ترى هل استعاض عنها بتلك البسمة الساخرة الحزينة حين خاطب جمهورًا لايحتفل الحفل الواجب بالصياغة ؟ .

ويعجب قارىء المازنى الشاعر لهذا الفيض الهائل من القنوط المساور والحزن الممض اللاعج ، على حين كانت حياته - كما يبين من كتاباته النثرية ، وكما استظهر بعض أصدقائه مثل العقاد وعلى أدهم - مليئة بالابتسام ، والسخرية ، وكأنه كان يلبس شية خاصة حين يفزع للنظم ، فلا تكاد شفتاه تبضان بطيف ابتسامة إلا فيما ترجمه عن هاينى الشاعر الألمانى ، حتى فى قصيدته «الموسيان»

عن «محمد» ولده - عرفته وسعدت بصحبته سنوات، مستحضرًا صورة أبيه فيه- وابن أخت صديقه العقاد «عزوز» ردًا على قصيدة العقاد إلى صاحبه ، كان المأمول وهو يتحدث حديث الإخوان أو الإخوانيات ، وعن ولدين لايزالان فى المهد، وفيهما - فيما يتوقع الآباء والأخوال - مخايل نجابة تتمنى ، لم يتخل المازنى عن إهابه الحزين ، ونظر إلى المستقبل فى قنوط وريبة - على غير ما رأى العقاد الذى كان ساخرًا مبتسمًا ، وودَّ المازنى ألايجيش الشعر فى صدر وليده :

لكنما أشفق ياصاحبى من أن يجيش الشعر فى صدره .

كان هذا أيضًا شأن حافظ بك إبراهيم ، الذى يملأ المجالس «بقفشاته» ونوادره حتى إذا فزع للشعر لاترى إلا دمعًا جائشًا ، وأسى حافزًا ، وربما كان هذا ديدن الشعراء ؛ لأن القصيدة تحاول أن تسد الثلمة بين الواقع والمأمول ، ومن ثم كان الحزن النسيج البائن فى الشعر ، ولايطعن فى ذلك سخرية بعضهم فيما يكتبون ؛ لأن السخرية أو البسمة الساخرة غلاف يشف عما تحته من وجد مضطرم . لعل هذا التفسير يضىء - ولو قليلاً - دجية أحزان المازنى الشاعر الذى اصطلحت عليه اللأواء والعلل والأوصاب العامة والخاصة - كما يضح فى ثنايا الكتاب ، ولامغمز فى صدق المازنى حين يسخر - حتى من نفسه فى مواقف تعز فيها السخرية ، وحين يحزن ؛ لأن كل حالة يقتضيها المقام ، ونود الإشارة هنا إلى موقف واحد وهو يرثى بنته ، مصورًا إياها تدخل عليه فى أثناء الكتابة ، معابثة عبث الطفولة - ولاندرى من الطفل منهما - فيصفها وهى تعض أذنيه «الطويلتين» ، تلك لفتة إنسانية ساخرة وحزينة لاتساور غير خيال المازنى ، الذى يلتقط فتات الأشياء ، ويوظفها فى خدمة مايقول وكيف يقول .

وإنى لأعود إلى شعره - وهل تركته لأعود إليه؟ - فأرجع إلى شقيق - رغم مجاهل الزمن - أجاذبه الودادة منخولة ، والإعجاب مصفى ؛ لأن الصدق يسرى فى نواياه التى أجوس فيها قبل أن يخطها على الورق ، وليس نثره ببعيد عنى فى تلك الخلة ، لأنه منذور لمعبد الشعر ، وكاتب هذه السطور أيضًا منذور مثله ، بيد أن المازنى نفض يديه من الشعر على غير مايهوى صاحبنا ، حيث لايكف عن التطريب والغناء ، وربما كان المازنى وراءه يحثه على عدم الإفصاء ، والإجبال ،

ولولا أن تلك خلة وفطرة لما استجاب صاحبنا لحث المازنى .

وعلى المرء الناقد أن يتخيل كيف يكون حـال الشعر المعاصر لو ظل المازنى يغرد حتى آخر لحظات حـياته مع أسراب الشعـراء فى زمنه ، وهو من هداة السرب . . نعتقد يقـينًا أن الشعر كان يستقـيم ظله ؛ نظرًا لاستقامة العود وعـدم اعوجاجه ، حيث يرتكن إلى نـظام وقاعدة ، على غـير الخيم السـائد الآن ، الذى يحاول أن يقتنص آبدة من كـلام المازنى المجدد فى قصيـدته «ليلة وصباح» ، وقصـيدته «إلى ولدى محمد» فى رثاء أمه ، وشعره المرسل مـساوقًا بذلك النمط نمط عبدالرحمن شكرى، وعدم مساوقة العقـاد لهما فى ذلك الضرب الأخير ؛ لأن الكلام المرسل «تخوّن» لنظام التقفيـة ، ودقة الرجل ، ولو درى من يتمسح بكلام المازنى لارتأى أن تجديداته فى الشكل مما يدخل فى النظام ، وفى الموشحات ندحة تسيغ أكثر من هذا ، لكنها الآفة !! [راجع كتابنا : حديث الشعر ، عن الدار المصرية اللبنانية] .

وفى مقابل هذا الرأى فى شعر المازنى ، ثمـة آراء أخرى جائرة ، أشدها اتهامه بالإغارة على شعراء العرب والعجم ، وقـد عالجنا تلك القضية فى الفصل المعنون «أصالة المازنى» ، لكننا وقفنا على رأى لمن يمهر كتاباته «م.ع. الأول» ولم يتمكن أ . د محمد أبو الأنوار من معرفـة صاحب التوقيع - وهو حجة فى تاريخ الأدب الحديث [راجع كلامه - غير مأمـور- فى كتابه «الحوار الأدبى حول الشعر] ، هذا الرأى يوازن بين شاعرية المازنى وشكرى وشاعـرية أحمد رامى ، وهو أثير لديه ، مرتئيًا أنه أحق بالريادة والزعامة من هذين السارقين ، واستمرت الموازنة أو المقارنة بتعبـير الكاتب تسع مقالات ، دون أن يصل د. أبو الأنوار إلى تحديد شـخصه ، والمقالات منشورة فى جريدة السفور وكما يبين من اسمها نزعتها إلى التجديد . .

وتتركـز هذه النقدات فى «أن رامى كالبلبل يتـغنى بغير صنعـة فيطرب ، وأن ليس بيننا من الشباب من ينظم بالسليقة غيره» ويعلل سبب المقارنة لوحدة المشارب الثقافـية ؛ حيث تخرجوا فى مدرسـة العلمين العليا ثلاثتهم ، ثم يتابع التـفصيل فـيرى أن رامى كـالنحلة ينتـقل من زهرة إلى زهرة ، وأنه لايقـرأ شعـر القدمـاء ليعارضهم ، بل هو يسـتمد المعانى من طبعه وهى تتداعى إليـه من الطبيعة ، وهو يترك نفسه على سجيتها فى القـول غير مقهورة بأوزار الصنعة ، والمازنى ليست له

هذه الميزة ؛ إذ يراه يلبس معانى الشعر الإفرنجى ثيابًا من الألفاظ العربية ، وجعل يرمى بجمر غيره فى رماده ليشب من ذلك نارًا ، وتكون قصيدته لاهى عربية ولاإفرنجية ، وهى فى النهاية سرقة صريحة . وانتهى إلى أن المازنى شاعر تقليد وتحد وسرقة . وليس بشاعر طبع ؛ لأن شعره لايصدر عن عاطفة كرامى» . [راجع تفصيلاً كتاب «الحوار الأدبى حول الشعر» ففيه جهد عظيم] .

والحق أن كلام هذا الناقد يجب إرجاعه إلى ملابسات عصره ، سنة ١٩١٨ ، حيث كان الناس مضطربين حول مفهوم التجديد ، كما كانوا ينظرون إلى جماعة الديوان نظرة الريبة وعدم الموضوعية . . وفى السنة التى قبلها ، كان قد صدر الجزء الثانى من ديوان المازنى ١٩١٧ ، وأثار عاصفة من النقد اللاذع والاتهامات لكن (م.ع ، الأول) وجريدة السفور يثيران عجبًا ؛ لأن البائن أنها مع التجديد ، ورامى فى رأينا ليس من المجددين ، بل هو امتداد للمدرسة الذائبة والنموذجية المصرية التى تنتسب - صلبية - إلى البهاء زهير ، وكل مايتوقع منهم أن يظلوا عصافير فى الأقفاص ، لأتشرئب نفوسهم إلى الأفق اللاحب ، والفضاء العريض شأن المدرسة التى أوغلت فى قراءة التراث على نمطها ،كما فتحت نوافذها إلى الأدب الإنجليزى ومايترجم إليه ، على حين كان رامى ورصفاؤه يقنعون بقراءة الأدب الفرنسى ، والفارسى ، وكلاهما يشاكه الطبيعة المصرية آنذاك ، وإذا كان الناقد يأخذ على المازنى معارضته ، فهى فى أغلبها تدور مع ابن الرومى ، وهو مازنى عصره إن صح التعبير ، وبينهما من الأواصر والوشائج مايمسح مجاهل الآباد والقرون ، فضلاً عن أن معارضة ابن الرومى نوع من التجديد ، وإن اتخذت القالب شكلاً ، حيث عبر المازنى ، ومعه العقاد عن مشاعرهما هما ، دون أن يقعا فى شراك ابن الرومى شاعرهما الأثير ، ومكتشفاه قبل أهل القديم والجديد ، لدرجة أن رجلاً كشوقى وعد بمراجعته مرة أخرى بعد كتاب العقاد عنه ومقالات المازنى المسهبة فى حصاد الهشيم .

هذا الاعوجاج النقدى يدل على أصحابه ، وعلى تمكن الغاشية التى تطمس الرؤية والنظر ، وهل يعقل - ولو خيالاً - أن يقارن شاعر مثل المازنى أو شكرى - مع رأينا فى جهامة شعره فى الأعم الأغلب - ونراه لايحكك مايقول ،

ولايعاوده بالمطاولة والمراجعة شأن المجودين المنقحين - هل يقارن مثل هذين الرجلين بشاعر هيِّن من الخفاف مثل أحمد رامى ، وله نظراء كثيرون الآن ، وإن لم يبلغوا مبلغه من المائية ؛ لأن زمنه كان يقتضى مراجعة لجيد المنظوم والمنثور ، على غير ماهو قائم فى زماننا الأظلع ، أحمد رامى - فى رأينا دون تجن على الإطلاق - يأتى فى ساقة شعراء عصره ، وكل مزيته أن أم كلثوم تغنت له فصيحًا وزجلاً - ولولا هذه اليد لما كان له مثل هذا الذكر ، بخلاف المازنى وشكرى والعقاد الذين لديهم صبر على معالجة الخوالج المركبة ، والمشاعر القوية الصادعة ، وتصوير مايعتور النفس الإنسانية من قلق وحيرة ، وتأمل إلى آخر مدى ، مثل هذه المشاعر ماكان لها أن تساور نفسًا مثل نفس رامى ، حيث تقنع بالوهاد المطمئنة، ولاتتطلع إلى القلال الباذخة ، على وعورة المسالك ووحشة الدروب . .

كذلك غزل رامى - ومعظم كلامه فى الغزل - إنما هو غزل استجلاب الأنس، فى المجالس القاهرية ، التى تقيس المشاعر وقوتها بكمية الدموع ، وتقف لدى مشهد واحد كأنه مشهد الصور المتحركة المتوقف ، على حين ترى خوالج من قرىّ آخر لدى جماعة الديوان ومن سلك مسلكهم ، وهل كلام رامى فى العامية «ولما أشوف حد يحبك يحلى لى أجيب سيرتك وياه» كلام رجل عاشق يغار ، وتتقلب فى نفسه مراجل الغضب ، لكنه رجل «قاهرى» من نمط خاص . . ربما كان الشاعر الساخر محمد مصطفى حمام صادقًا ومصورًا للحقيقة حين وصف رامى وكلامه بهذين البيتين :

حبيبى وجهه بنبى وأى وجوهنا بنبى

لقد كانت له دار وكانت داره جنبى

وفى ذرع القارىء أن يغض الطرف عن الرسم «الكاريكاتورى» ، ولكنه لايغض البصر عن عبقرية الرسام ، وأن «الفطرة» التى أشار إليها «م.ع. الأول» كاتب السفور هى من قبيل تلك الفطرة الساذجة .

أليس على الناقد حين يطالع الصفحات المجهولة فى الدوريات وفى الكتب أيضًا أن يتميز بملكة تنخل الكلام ، وأن تحسن الرأى والتعليل ، وأن تقرأ الإبداع

أولاً لتمـيز الخبيث من الطيب . . وألا تفـزع إلى الأقوال الشوائع التى تسـير بين الناس بلا شكيم يضـبطها أن تجـمح ، وأن يكون الناقد بصـيراً بمضـايق الكلام ، وليست هناك صناعة قائمة بذاتها تسمى «صناعة النقـد» إلا إذا كان صاحبها مبدعًا أوَّلاً ، عارفًا بتصاريف الكلام ، خاصة الشعر ، أو على الأقل فيه إبداع مضمر ، يتخـفى فى إهاب الناقد ، وألا يـدع هذا الإبداع المضمر يـسد عليه منـافذ الرؤية حسدًا من عند أنفسهم ، ومـا أكثر هذا الصنف الآن ، الذين قعدت بهم ملكاتهم عن الإبداع الخالق ، فأووا إلـى منطقة النقد وهى أشبه بمـنطقة الأعراف ، أو بمن يتزوج باثنتين فـيأتى وشقه مائل لعـدم إقامة الميزان بينهـما ، والشق المائل هنا هو الحسـد القائم فى النفوس حين تـعجز عن الخلق ، ولايدرى شـراب القوم إلا من ذاقه ، وله صرعة تتمشى فى العظام قـبل أن تسرى فى العروق ، وويل للمبدعين الشعراء من النقـاد وأشباه النقاد ، لكنهم - أى النقاد - يدلُّون على أنفـسهم حتى حين لايريغـون ، لكن ويل المبدعين يفشـأ أواره مايبدعونه ، والحـالة التى يئولون إليها بعد الإبداع ، على غير الويل المقارن لهـؤلاء النقاد المعروفين بسيماهم ، فهم يرشحون موتًا على رأى ابن أخت تأبط شرًا .

وكم أصاب مثل هذا الويل صديقنا المازنى فى حياته وبعد رحيله ، وحسبك أنه لم يصدر بعد كتابنا عنه شاعرًا كتاب آخر ولو كان مناقضًا ، وإن ظهرت كتب عنه أظهرها ماكتـبه فاروق خورشيد وأحمـد عوضين ، وأما كتاب نعمـات أحمد فؤاد فقد ظهر قبل كتابنا ، وفيـه «فصيل» عن شعر المازنى لكن الكتاب فى جملته هين لين ، يدل على تعثر فى الرؤية والفهم ، وكان الأستاذ العـقاد - فيما سمعناه منه ومارويناه عن غيره - مدفوعًا لتقديم الكتاب مجاملة لصديقه المازنى وتوأم روحه ، وأصاب المؤلفة بعض من تلك المجاملة . .

ونحن ننتظر أن يهتم النقاد المبدعون بالمازنى الشاعر ، خدمة لأنفسهم وعصرهم وأدبهم ، لا خدمة لصاحـبنا الذى نفض يديه من كل الدنيا ، وترك لنا ولمن بعدنا أدبًا حيًا مجددًا ، سـيبقى فى الذاكرة العربية ، وغير العربيـة أيضًا - ترجمنا مثلاً بعض قصائده إلى الإسبانية ، وتطوع صديقنا خوسيه باثكث بصياغة الترجمة شعرًا إسبـانيًا أثار الإعجـاب به - مابقى فى هذه الأمـة حرف عربى يُـقرأ فيـمتع ، أو صوت عربى ينطق فَيُسمع .

أبوهمام